

مؤسسة الشيخ عمي سعيد ثقافة . تربية . تراث

الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجري [ت 927 هـ / 1521 م]
إلى الشيخ جمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

المحاضرة الثانية:

المجالس العرفية بوادي مزاب
نشأتها ، أنوا عها ، تاريخها

إعداد:

الشيخ محمد بن أيوب صدقي⁽¹⁾

1- الشيخ محمد بن أيوب صدقي، تخرج من دار المعلمين بالجزائر، ليسانس من كلية الآداب، أستاذ علوم القرآن وأصول الفقه والفقه المقارن بقسم التخصص في العلوم الإسلامية التابع لمؤسسة الشيخ عمي سعيد غرداية.

مدخل

"إنَّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" مقولة تنسب إلى الصحابي الجليل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وقد استلهمها ممّا صار يشاهده من تأثير التطوّر على نفوس الناس، حين بدأت تتفتح عليهم الدنيا وتفتنهم بزخارفها، ورأى طلائع الفتن تطفو على الساحة السياسية، وبذور الانفصام عمّا تركته أيام الوحي والخلافة الأولى، ممّا جرّأ المغامرين على التطاول حتّى على منصب الحكم، والتخلّص من الخليفة، والقضاء على الخلافة الرشيدة التي لم ير الناس على أنقاضها إلّا ملكاً عضوضاً، وتهافتاً على الكرسي، وتلاعباً بالمنصب، في خلافة الأمويين والعباسيين والذين جاءوا من بعدهم!!

ولم تكن تجربة الإباضيين مع الأحداث أقلّ حظاً من الخلافة الرشيدة، وقد عايشوا الفتن والصراع على مناصب الحكم، واصطبغوا السلطة بمظاهر الترف وظواهر الأبهة، على حساب يقظة الضمير ومحاسبة النفس!

لقد كان من مبادئهم الدعوية "وجوب الإمامة" ففي العقيدة: «وليس ممّا من قال: إنّ أسماء الله مخلوقة، - إلى أن قال - ولا من زعم أنّ الإمامة ليست واجبة ولو كانت شروطها»⁽¹⁾ وهم - كما ذكر القطب في شرحها - : النكار والإسماعيلية والإمامية وقوم من المعتزلة⁽²⁾.

ولم تكن خطّتهم في الدعوة إلّا أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر - كما توصي الآيات - بالحكمة والموعظة الحسنة، بعيداً عن العنف واستحلال دماء المسلمين وأموالهم. والاعتناع بسلامة المنهج وصحة القصد ليس من الصعب إدراكه على رشاد العقل، ولا من المستحيل تحقيقه على مستوى الشعب، لا سيّما في الشمال الإفريقي، حيث عانى السكان الأمرين من جور الولاة وتعسف السلطة!

وكانت لهم تجربة مع الإمامة الأولى بطرابلس ليبيا "إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري". ثمّ الثانية بنفس المكان مع أبي حاتم يعقوب بن ليبب الملووزي، وهو أصلاً إقليم تابع للخلافة العباسية. ثمّ الإمامة الثالثة الرستمية، حيث أنشئت لها من الأساس عاصمة "تيهت"، وعاشت مدّة أطول (296/160)، ولعلّ مختلف الطوائف المتعايشة ولا سيّما البربر لم يتوفّر لها من دواعي الطمأنينة والاستقرار ما توفّر لها في ظلّ هذه الدولة: عدالة في الحكم وحرية في الاختيار، وازدهار في الاقتصاد، كما أفاد بذلك

1- انظر مقدمة التوحيد وشروحها تحقيق الشيخ أبي إسحاق، ص 114.

2- شرح العقيدة للقطب تحقيق الأستاذ وينتن.

شاهد على العصر ابن الصغير المالكي.

لكن "لهوى النفوس سريرة لا تعلم" كما يقول المتنبي، ونوازع الشرّ فيها لا حدّ لها، وكأنّ منها من لا يرتاح للاستقرار السياسي والتعايش السلمي، فما لبثت المناوشات تنخر في عظامها داخلا وخارجا حتّى أسهمت فيما أسهم من عوامل الضعف، وعرضتها نهائيا كجارتها الأغلبية والإدريسية للاجتياح الفاطمي. ثمّ كانت للإباضيين محاولة لاستردادها بعد ذلك بثورة قادها الزعيمان أبو نوح سعيد بن زنگيل وأبو خزر يغلا بن زلتاف، حيث بويع لهذا الأخير إماما للدفاع بمسجد المنية بتقيوس من بلاد الجريد التونسي سنة 358هـ، وفشلت المحاولة، وتعرّض الزعيمان للأسر، وذلك في أيام المعز رابع الملوك الفاطميين ومؤسس القاهرة (341-362).

واستخلصوا من التجربة تصنيف ضروب القيادة إلى أربعة، أطلقوا عليها مصطلح "مسالك الدين" أي الطرق التي يتوصّل بها إلى إنفاذ الأحكام الشرعية - كما فسّرها القطب اطفيش⁽³⁾:
الظهور: حين تكون السلطة بيد إمام يقيم أحكام الله، كما كانت في عهد الخليفين أبي بكر وعمر والإمامة الرستمية.

الدفاع: في حالة استنفار الناس إلى ردّ العدوان حين يُهاجمهم عدو، أو إلى مقاومة الظلم والاضطهاد، ومثّلوا له بإمامة عبد الله بن وهب الراسبي، ويشبه أن تكون مثالا لذلك إمامة أبي خزر، لأنّها كانت انتقاما لا غتيال السلطة لزعيمهم أبي القاسم يزيد بن مخلد.

الشراء: وهو التزام نذري تتدب له طائفة من المسلمين، على أن تخرج في تظاهرات سلمية يراد بها التعبير عن استنكارهم لتفشي المنكرات، على أن لا يكون هدفهم سعيًا إلى مناصب الحكم، ومن الجدير بالذكر أنّهم لا يحملون سلاحا إلّا دفاعا عن النفس، ولا يتجاوز عدد الفرقة منهم أربعين شخصا، ولا يقلّ عن ثلاثة، ومثّلوا له بوضعية أبي بلال مرداس ابن حدير، حين أعلن عن معارضته لأسلوب زياد بن أبيه في ملاحقة الإجرام، والذي أعلنه في خطبته الشهيرة بالبراء: «... والله لآخذنّ الولي بالولي والمقيم بالطاعن والصحيح بالسقيم... الخ» وردّ عليه أبو بلال ما هكذا يأمر الله إذ يقول: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

الكتمان: يكون المجتمع تحت سلطة قاهرة، لا تسمح بإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام الشرعية على الوجه الأكمل، ويمثّلون لذلك بحالة النبي ﷺ في دار الأرقم قبل أن يصدع بالأمر، وينظرونه بحالة الأئمة

جابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم والربيع بن حبيب وأضرابهم، ممن عاشوا الاضطهاد الأموي⁽⁴⁾. ولا يعني أن هذه الفترة "فترة الكتمان" محرومة من ممارسة شعائر الدين حسب الشريعة، أم هي خالية من ظهور مشايخ يحظون بمكانة مرموقة لدى عشائريهم، يتصدرون المجتمع، وينالون ثقة الجماهير، ويُرجع إليهم في الفتوى وحلّ المشاكل وإصلاح ذات البين، وقد يكون بعضهم من ذوي الكفاءات العالية في حلقات التعليم والوعظ في المساجد، ولكنها جهود فردية لا ترقى إلى تكوين مجالس لها صلاحيات قيادة المجتمع وتنظيمه.

وأضرب لذلك مثلاً رجلين:

- أحدهما من وارجلان أبو صالح جنون بن يريان.
 - والثاني من جزيرة جربة أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور.
- كما كان لبعضهم حظوة لدى سلطات عصره، ويستشار في كثير من الشؤون المتعلقة بمنطقته، ويستخدم نفوذه فيما يجلب لها نفعاً أو يدفع عنها ضرراً.
- وأذكر من ذلك على سبيل المثال علمين:
- أحدهما أبو القاسم يزيد بن مخلد أيام المعز الفاطمي.
 - والثاني وحنين بن أوريغول أيام الصنهاجيين.

1. أبو صالح جنون (ق4هـ/10م):

يعتبر من أهمّ الأفضاذ الذين برزوا في وارجلان علماً وذكاء ونفوذاً، وإليه يرجع الفضل في إطفاء فتنة الفرثية⁽⁵⁾ وذلك في مباحلة مذكورة في كتب السير، وكان يتمتع بشروة فائقة من مزارعه الواسعة، وينفق بسخاء على العلم وأهله.

أوى إليه الإمام يعقوب بن أفلاح هرباً من الغزو العبيدي لتاهرت، فأكرم مثواه، وعرض عليه أن يبايعه بالإمامة فاعتذر بقولته الشهيرة: "لا يستتر الجمل بالغنم".

وهو الذي لجأ إليه فيما بعد أبو نوح سعيد بن زنگيل⁽⁶⁾ حينما تخلص من ربة المعز، فوجد في رعايته خير مثوى، وأقام عنده معزّزاً مكرّماً، وأفاد البلاد بسعة علمه ومقدرته الإقناعية، وقد عرض أبو صالح على الشيخ أبي نوح عرضاً سخياً لاستبقائه حين راوده الحنين إلى بلده "تمولست" وأبى إلا الذهاب، قال له: أقم

⁴ - انظر شرح عقيدة التوحيد للقطب اطفيش، تحقيق الأستاذ ويتن، ص195. وانظر أيضاً مقدمة التوحيد وشروحها تحقيق الشيخ أبي إسحاق، ص50.

⁵ - فرقة انفصالية من الإباضية تنتمي إلى أبي سليمان بن يعقوب بن أفلاح.

⁶ - ويبدو أن ما ورد في بعض المراجع من لجوء زميله أبي حزر معه كان وهمّاً لأنّه لازم المعز وانتقل معه إلى القاهرة.

أقسامك جميع ما أملك ، وقد ندم على فراق وارجلان حين وجد أنّ الأحوال في بلده قد تغيّرت. وله مواقف مشكورة في ازدهار الحركة العلمية وإصلاح المجتمع.

2. أبو زكرياء (وفاته بين 420-440هـ):

من أبرز الشخصيات اللامعة في جربة ، وهو فصيل بن أبي مسور يسجا بن يوجين ، خريج حلقة والده بالمسجد الكبير الذي أسسه لبني يراسن ، ثم تولى التدريس فيه بعد أن أكمل تشييده بمعية زملائه المشايخ أمثال أبي عمرو النميلي (الشهيد) ، وأبي صالح بكر اليهراسني ، ولا يزال معلماً مشهوداً إلى الآن. وتخرّج عنه الكثيرون ، منهم أبو الخطاب عبد السلام بن وزجون وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي ، وأبو محمد وسلان بن أبي صالح اليراسني ، والعلامة أبو عبد الله محمد بن بكر. ويروى عنه من أعمال البر والأخلاق الفاضلة ما بوّاه منزلة رفيعة في نواحي جربة ، وهو الذي قال في رثائه أحد عمال السلطان : «مات امرؤ عالم أنّه سيموت» وهذا تعبير دقيق في الإشادة بأخلاق الرجل. ومما يذكر من مآثره أنّ أحد عمال الدولة فرض على قومه "بني يراسن" ضريبة باهظة ، فقال له أبو زكرياء : إنهم غير قادرين على دفع هذا المبلغ ، فقال له كم تراهم يقدرّون؟ فذكر له مبلغاً زهيداً ، فاكتمى العامل بقبضه احتراماً للشيخ ، ومع سعيه للتخفيف عنهم لم تطمئن نفسه حتّى غرم ذلك المبلغ من ماله الخاص للفقراء تخرّجاً⁽⁷⁾.

ومن أقواله : «إذا قحطت الأرض فإنّ الجنة تنال بقبضة طعام ، وإذا قحط الإسلام -يعني مسّه ضعف- فإنّ الجنة تنال بكلمة حقّ وقد اجتمع القحطان في وقتنا هذا»⁽⁸⁾.

3. أبو القاسم يزيد بن مخلد (358هـ/968م):

كان زميلاً في الدراسة للشيخ أبي خزر في الحامة من بلاد تقيوس على الشيخ أبي الربيع سليمان بن زرقون وسحنون بن أبي أيوب ، ثمّ تصدر حلقة تعليمية بالمنطقة ، حيث أخذ عليهما الطلاب مختلف العلوم : علوم القرآن والحديث والأصول والفقه والسيرة. وكان أبو القاسم يقوم بمؤونة الطلاب ، ويذكر أنّه بلغه عن أحد طلابه أنّه تزوّج ، فقال أسفاً : «لأنّ يبلغني موت أحدكم أهون عليّ من أن يبلغني أنّه تزوّج» ، فقالت له امرأته : ولم تزوّجت أنت؟ فقال : «لو علمت مكان مسألة من العلم أستفيدها ممّن فاتني بها لشددت إليها رحلي مشرقاً أو مغرباً ، لا أخشى أن تعذبني الله إلّا على الجهل»⁽⁹⁾.

⁷ - انظر طبقات الدرجيني، ج1، ص161.

⁸ - المصدر السابق، ص163.

⁹ - نفس المصدر، ص120.

وكانت لأبي القاسم حظوة ممتازة عند ملوك الفاطميين ولا سيما المعز، ومن مواقفه المشرفة: أن للمعز راية حمراء يرسلها في كتيبة عسكرية إلى بلدة إيدانا بالهجوم عليها، وراية بيضاء لإعلان رضاه، وبلغ أبا القاسم أن جنودا توجهوا إلى بلدة الحامة بالراية الحمراء فدخل على المعز فسأله ما حاجتك؟ قال: أن تعفو على أهل الحامة، فدفع إليه الراية البيضاء، فسار مسرعا حتى سبق بها الجيش، فما نزلوا حتى فوجئوا بالبيضاء مركوزة عند مدخل البلدة، فتنحوا جانبا ولم يصيوها بسوء.

إلا أن الحساد لم يزالوا بالمعز يخوفونه عاقبة نفوذ أبي القاسم حتى صغى لوشايتهم، وتقول يهودي عليه أنه يفكر في القيام على الدولة، فأرسل يطلب رأس أبي القاسم، وتمكن الجنود من اغتياله، وأرسل رأسه إلى المعز، فعظمت المصيبة فيه عند الإباضية الذين تشاوروا في شأن الانتقام له، فكانت الثورة التي أخفقت لأسباب يطول شرحها⁽¹⁰⁾.

4. وحنين بن وريغول:

كان مقدم بني درجين، وكان يفد على المنصور بن بلكين بن زيري الصنهاجي، وفي رجوعه من إحدى وفادته، خرج أهل قنطار لاستقباله وفيهم الشيخ أبو نوح وطلابه، وطائفة من النكار⁽¹¹⁾ قد سبقتهم، إلا أن وحنين تجاوزهم واكتفى بالسلام إشارة، ونزل عن فرسه وسار ماشيا حتى صافح الشيخ وأصحابه قائلا: «أنا والله ما كان لي هم في مغربي ولا أسف على شيء لو مت في سفري هذا إلا القيام بواجب حقوقكم، فإن الذي أوجه من ذلك على نفسي قد لا يقوم به غيري إن غبت أو مت»⁽¹²⁾.

الانكفاء الذاتي

إن انتهاء الحكم الرستمي وما تلاه من تعاقب أنظمة لم يتح لها السيطرة على الوضع ولم تتمكن من قمع الفساد واستقرار الأمن ترك فراغا قياديا في الأفطار التي يتواجد فيها الإباضيون، مثل جبل نفوسة بليبيا، ومنطقة الجريد بتونس، والجنوب الجزائري: وارجلان ونواحي أريغ ووادي سوف. وهذه المجتمعات - وإن كانت مزدهرة في كثير من الأحيان بوجود مرجعيات محلية ومشايخ لهم مكانة مرموقة تتمتع بقوة ظاهرة - كما يذكر الدرجيني عن مزاتة بإفريقيا (ناحية باجة في تونس) أنها: «في قوة عظيمة من مال وجاه ورجال وخیل، وقالوا إنهم كانوا إذ ذاك في اثني عشر ألف فارس، وأمّا الرجال فلا يحصون

¹⁰ - انظر الطبقات، ج 1، ص 120 وما بعدها.

¹¹ - فرقة انفصالية عن الإباضية نسبت إلى إنكارها إمامة عبد الوهاب الرستمي واعتراضها على سياسته.

¹² - المصدر السابق، ص 145 بتصرف.

عددا»⁽¹³⁾ غير أنه لم تظهر في هذه الحقبة شخصية تستقطب هذه الأقطار وتكون مثابة للناس ، ومرجعية قيادية للأمة.

¹³ - الطبقات، ج1، ص124.

أبوزكرياء يهيئ المناخ لتأسيس الحلقة

يبدو أنّ الشيخ أبا زكرياء لم تنزل تراوده فكرة إعداد مجتمع متماسك يتمتّع بقيادة رشيدة وكفاءة تنظيمية، وكأنّه تفرّس في تلميذه القدير أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي أن يتحقّق على يده شيء من هذا القبيل، وربما شغل ذهنه ذلك في تصوّر مبهم، لما يتبلور في استراتيجية واضحة. واهتدى أن يرسل ابنه زكرياء ويونس وابن أخيه أبا بكر بن يحيى في جماعة من أقاربهم ليكونوا نواة لانبعاث الفكرة، وأوصاهم: «اطلبوا أبا عبد الله، فحيثما وجدتموه فلازموه، واقرأوا عليه، وحيثما كان فكونوا معه، ولو في شغل دنياه»⁽¹⁴⁾.

فانطلقوا من جربة في اتجاه الشمال، مزودين بهذه التوصية الوحيدة، بحثا عن رجل لا يعرفون له مقراً! فهم يلتمسون في مظان تواجدّه، وعرجوا على "تمولّست" قرية لم يعد فيها يومئذ للإباضية وجود إلاّ الشيخ يصلّيتن ومن معه من نساء وأطفال، فتجاوزوها إلى "امدر" واستاء الشيخ لما بلغه ذلك، وأرسل يطالبهم بالرجوع إلى قريته ليستضيفهم، وهذّدهم -إن لم يفعلوا- أن ينسحب هو ومن معه من المذهب، فلبوا طلبه وأقاموا أيّاما في ضيافته وتذكير الحاضرين بنصائحهم.

ثمّ واصلوا مسيرتهم إلى "تقيوس"⁽¹⁵⁾ فصادفوا أبا عبد الله قادما إليها من القيروان، بعد أن حصل على مبتغاه من علم اللسان، متّجها إلى "تاجديت" للتزوّد في علم الفقه على الشيخ أبي عمران موسى بن أبي زكرياء، وكم سرّهم حين أدركوا أنّ الله قد كافأهم - بما أسدوه من سرور للشيخ يصلّيتن ومن معه بمكثهم في ضيافته - بأن قرّب لهم ما كانوا يظنون أنّه بعيد!

أعلموا الشيخ بالهدف الذي ندهم أبوزكرياء لأجله، وألحوا عليه أن يرّتب لهم الحلقة، وأقاموا أيّاما - وقال بعض شهورا - يراودونه وهو يمتنع، وبينما هم في مسجد "المنية"⁽¹⁶⁾ تناهى إلى سمعهم صوت من الطريق خارج المسجد من رجلين افترقا، فقال أحدهما للآخر: «اجعلها لله لا تخب!» واتّخذوا منها فألا لإقناع الشيخ، فاستجاب بعد لأي، على شرط أن لا ينتظروا منه جوابا على سؤال قبل أربعة أشهر!

فتأسست الحلقة بمسجد المنية سنة 408هـ ومن غريب المصادفات أنّها المكان الذي عقدت فيه بيعة إمامة الدفاع لأبي خزر سنة 350! أي قبل نصف قرن تقريبا، وكأنّها تواصل الأجيال، في ظروف صعبة من تدهور الأمن، وذلك بسبب فتنة بين زناتة وصنهاجة من جهة طرابلس، والشيخ في قلق شديد، إلى أن

¹⁴ - الطبقات، ج 1، ص 167.

¹⁵ - تعرف حاليا بالوديان كما يذكر الأستاذ الجعبري، ص 33.

¹⁶ - ذكر الشيخ الجعبري أنّه يوجد عند سور مدينة تقيوس من الجهة الغربية، نظام العزابة.

ألهمه الله فاستشار أصحابه في الانتقال إلى "أريغ" وفيها قبيلة مغراوة، وهم -على حد وصف الشيخ- رفاق القلوب، فأرسل أبو عبد الله إلى أبي القاسم يونس ابن ويزكن الويليلي يعلمه بالرغبة في الانتقال إلى المنطقة، ويطلب منه أن يهيئ للطلبة غارا يكون مثوى لهم، وموقعا لدراستهم، فاستقروا في بني ويليل (فرع من مغراوة)، وذلك سنة 409هـ ومن هذا أتت تسمية هذا الغار بالتسعي، ثم تنقل الشيخ بتلاميذه إلى "تينيسلي" حيث شيد معهدا للتدريس بـ"أجلو"⁽¹⁷⁾ وهناك وضع خطته المعروفة بسير الحلقة⁽¹⁸⁾ كمرحلة انطلاقة.

أبو عبد الله يرسم أسس الحلقة

تعتبر منشأة أبي عبد الله حلقة تعليم للطلبة، في نظام بلورته التجربة وضبطته الكفاءة. والمصادر التي تناولت الموضوع مثل طبقات الدرجيني وجواهر البرادي تكفلت بعرضه كنظام تربوي يستحق التأمل.

وبدراسة خطته كما تنقلها المراجع يستخلص الباحث من تجربته الملاحظات الآتية:

- 1) إطلاق تسمية العزابي على كل من التحق بالنظام والتزم بتعاليمه، ولو أنّ الكلمة ليست من ابتكاره، إذ هي من استعمال أبي الحر علي بن الحصين العنبري بمكة، ولكنه أحسن توظيفها وصفا للمنتسب للنظام، باعتباره عازبا عن الدنيا، مهاجرا إلى الله، متفرغا إلى ما يكسبه مكانة عند الله.
- 2) التزام زيّ معيّن في اللباس والمظهر، مما يكسبه مهابة في القلوب.
- 3) التزام آداب وسلوك متميّز يتسم بالوقار، خاصّة حينما يكونون في ضيافة بعض العامة، وهناك تبدو أهمية العرفاء في مراقبة تصرّفات الطلبة، وكان الشعار المتّخذ لذلك "حسن بن ثابت" أي حسن أخلاقك واثبت على دينك.
- 4) أنّ الشيخ توصّل بحصافته إلى أنّ للشعارات تجاوبا مع مشاعر الناس، وأنّ للشعائر أثرا لا ينكر في تقوى القلوب، وتأثيرا لا يخفى في استدرار تقدير الناس، وبعث الهيبة في نفوس الجماهير، فاستغل ذلك أيّما استغلال في كسب التأييد.
- 5) وتنبّه إلى ما في بلاغة المتكلم وفصاحة الخطيب من أثر في التوجيه، كما أنّ للقدوة الحسنة فضلا كبيرا في إبلاغ الرسالة.

2- تعرف اليوم ببلدة اعمر على بعد حوالي 30 كلم من تقرت، وفيها قبره رحمه الله.

¹⁸ - الدرجيني، طبقات، ص 167، يتصرف، وانظر نظام العزابة للشيخ الجعيري ص 31 وما بعدها.

6) لم ينس أن يضع في برنامجه التربوي أسلوب عقوبات: "خطّة، هجران، (مقاطعة) براءة (تبرية)" لما في بعض النفوس من تمرد يحتاج إلى زواج تهديهم إلى سواء الصراط، وهي - وإن وضعت أصلاً لتقويم سلوك الطلبة أثناء أدائهم للشعائر - منهج استفيد منه حين آلت إلى الحلقة قيادة الجماهير، - وهم كما لا يخفى - في حالة كتمان لا تسمح لهم بإقامة الحدود، فقد أثبتت التجربة أنّ الزواج التأديبية من أهم ما يقوم الأخلاق ويقمع الفساد، حين يهيأ لها مناخ التنفيذ ليتّم بها الردع.

وقديما قال الشاعر العربي:

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم	ولا سراة إذا جهالهم سادوا
--------------------------------	---------------------------

7) ومن الجدير بالذكر أنّ أيّ نظام مهما كان رشيداً لا بدّ له من أنصار يقتنعون بمجدواه، ويغدقون عليه من الرعاية والحماية ما يكفل له الاستقرار والاستمرار، وهذا ما اهتدى إليه الشيخ حين أوى بحلقته إلى بني مغراوة اعتماداً على ما تفرّسه فيهم من مساندة ضرورية.

وهذا إدراك منه لدور العشيرة كقاعدة شعبية للتعاطف مع مهمّته والتعامل معها، وهو بذلك قد رسم للعشائر دورها ردّاً لحلقات العزابة على مرّ الدهور.

أبو عبد الله في مزاب

تفيد المصادر أنّ الشيخ أبا عبد الله قد خصّ ميزاب بمعظم رحلاته، وله في العطف المدينة التي اختارها لإقامته مقام معروف، أثبت له صورة في كتابه نظام العزابة الشيخ فرحات الجعيري الذي نقل عن الشيخ أبي اليقظان الباعث على هذا التخصيص:

- اجتناب منطقة أريغ لفساد مناخها.
 - التفكير في تحصين الإباضية في منطقة صعبة تحميهم من هجومات الأعداء.
 - اشتداد القحط حول قرى وارجلان وأريغ.
- لأجل ذلك عقد أولو الأمر من العلماء وأهل الرأي - وعلى رأسهم أبو عبد الله - مجعماً للبحث عن مكان يؤويهم وأجيالهم من بعدهم، فعينوا أبا عبد الله للقيام بهذه المهمة، فوقع اختياره على جبال بني مصعب ليستقرّ بها نظام العزابة بعد أن كوّن ورّتب⁽¹⁹⁾.
- لكنّ الدرجيني يقول في تعليل ذلك: «إنّه كان يطلب بذلك إراحة خاطره وخواطر التلاميذ واستصلاحها،

¹⁹ - الجعيري، نظام العزابة، ص 39.

وتدبير قوى أجسادهم واستصلاحها ، فإنه علم ما في بلاد أريغ من رداءة الهواء وقلة طيب الماء ، وأيضا فإن بني مصعب كانوا واصلية (فرقة من المعتزلة) فعمّت عليهم بركته ، فرجعوا إلى دين الحق والطريقة المرضية ، وذلك كان أكثر قصده في انتجاعهم وحلول رباعهم»⁽²⁰⁾.

ويبدو أنّ هذا الرأي هو الأنسب ، لأنّ المؤرخين متفقون على تواجد المعتزلة في المنطقة منذ أيام الرستميين ، وكان معظمهم يعيش في الخيام ، وأكثر تجمعهم في ناحية "أغرم ان تلزضيت" بتفخيم الزاي ، قرب العطف الحالية.

فكان لتكرار زيارات الشيخ للمنطقة وإطالة مقامه بينهم وأسلوب ترشيده لهم -كما يشير الدرجيني- هو الباعث لهم على تحسين أوضاعهم الاجتماعية والدينية ، واتّخذوا منه مرجعية في القيادة والإمامة ، وإذا كان الأستاذ الحاج سعيد يقول : إنّ تولّي حلقة العزابة قيادة المجتمع لا يعرف على وجه التحديد⁽²¹⁾ ، فما المانع أن يكون الشيخ وثلة من طلبته هم نواة هذا التنظيم عمليا ، لا سيّما إذا كان هو -أي الأستاذ الحاج سعيد- يصرّح بقوله : «ويجمع المؤرخون على أنّ تحوّل بني مصعب إلى المذهب الإباضي يرجع إلى الدعوة التي قام بها الداعية أبو عبد الله محمد بن بكر»⁽²²⁾ ولم تكن منهم استجابة بسهولة ، إذ من الصعب التخلّي عن المعتقدات الراسخة حتّى انتقموا من الشيخ باغتيال ابنه ، ولم يفتّ ذلك من عزيمته ومواصلة كفاحه.

ومن المعلوم أنّ هذا النشاط خارج عن الإطار التربوي في مؤسسته سيّما ، إذا علمنا أنّ من طلائع مريديه وأبرز طلابه الشيخ إبراهيم بن مناد في العطف والشيخ بابا السعد في غرداية⁽²³⁾.

والمجتمع إذا أسلس قياده اقتناعا بقيادة رشيدة سارت به في منهج قويم وتمكّن بذلك من محاربة الفساد ، واتّخذوا من أعيان المجتمع خير مساعد لهم على تحقيق الهدف.

وقصة الشيخ مع أهل أريغ -كما أوردها الشماخي في كتابه السير⁽²⁴⁾ - من أهمّ ما يتّخذ عبرة في هذا المجال.

²⁰ - الدرجيني، طبقات المشايخ، ج1، ص183.

²¹ - تاريخ بني مزاب، ط2، ص25.

²² - نفس المصدر، ص19.

²³ - الجعبري: نظام العزابة، ص40.

²⁴ - قال الشيخ الشماخي: «وذكر أنّ بني ورماز طغوا وأكثروا من الفساد وقطع الطرق، فاجتمعت جماعة أهل أريغ إلى الشيخ أبي عبد الله فوعظهم، وذكر على حسب ما جرت به العادة في مجالسه، ثمّ ذكر لهم ضرر بني ورماز بالسالكين والمستضعفين في الأرض، وأكثر القول فأجاب قائلهم بأن لا طاقة لنا، وما عسى أن تقدّر عليه، قال الشيخ: نقدر على أنفسنا، فارتحل بأهله، ونزل يقرن من قرى وارجلان، فأقام بها عاما، فضاعت أحوال أريغ، لفقدانهم أبا عبد الله وما كان يصلح من أحوالهم وفسادهم، فاجتمع أهل أريغ وأتوه ورغبوه في الرجوع فامتنع، قالوا ضيعتك أقبلت منفعتها وخيرها، فقال هي عندي مثل هذه الريتا (كذا) صرت فيكم كالفريسة يعتادها السباع من كلّ مكان. يقصدي العزابة من الأفق من طرابلس وإفريقيا والزاب وقصطالية وغيرها فيقتلون بنوحي أريغ، وعدّ عليهم أشياء قيحة، وأيسوا من رجوعه، فرجعوا واجتهدوا في وجوه الصلاح، وتعاونوا على البرّ والتقوى، وتجنّبوا الإثم والعدوان، وقمعوا الطغاة، فأتوه ثانيا ورغبوه في الرجوع فرجع». اهـ ص388.

ولا ينفي هذا أن يكون النظام قد أكسب مزيدا من التحسينات والصلاحيات بمقتضى التجربة عبر الأجيال.

الحلقة (هيئة العزابة) ودورها الاجتماعي

«لا يخفى على أحد ما لحلقة العزابة من فضل على المجتمع -ولو في فترة الضعف- فمساهمتهم في ضبط التصرفات العامة ربط الأمة بالمسجد وأعطى لهذا الربط دوره القيادي في الأمر والنهي، فخفف من نزوات الشباب وعبث الشعب بالأخلاقيات الاقتصادية، فمثلا:

1. ساحة السوق "لالة عشو" عندنا في بني يزقن هي وقف تبرعت به هذه السيدة التي تحمل اسمها، فصار بحكم وقفيتها تحت تصرف العزابة: فهم المراقبون لنشاطه: يوظفون الدالين، ويحددون لهم أجره عملهم، ويعفونهم من مناصبهم، أو يوقفونهم مؤقتا إن كانوا في البراءة حتى يتوبوا، ويتحكم الناس إليهم في أية مشكلة تطرأ بين المتعاملين، وهم يلاحظون ما يرد السوق من البضائع، وينصحون الناس إذا ما صدرت منهم تجاوزات غير مسموح بها... إلخ» .

2. قضية الأعراس وما يقع من تنافس في المهور، والتفاخر بمظاهر الاحتفال، مما جعل العزابة يقفون بالمرصاد لتحديد التكاليف، وتقليص المصاريف، وطريقة الاحتفال، ومقر إقامته، ونوعية الوجبات، وتعيين الأيام لفائدة الجميع، ولا يزال لهذا التحديد دوره الهام في الانضباط، وقد كان -فيما يذكر- تستغرق مظاهر الأعراس ثلاثة أسابيع ثم تشفع بيوم عند النساء يسمى "22" ولا يزال يوم رمزي يشعر بذلك.

وعلى مرّ الأيام وغلاء الأسعار وكثرة الأعراس قلصت المدة إلى أسبوع ثم إلى يومين؛ ولا يوجد بديل عن المسجد وقيادته في التحكم في هذه الأعراف المتأصلة.

لذلك يعاني الكثير من المجتمعات التي لا قيادة فيها للمسجد الكثير من المتاعب في هذا المجال».

وشعور الناس بضرورة إشراف العزابة على الوليمة ساهم في هذا الانضباط ولو إلى حد ما... إلخ

3. «ولا تخلو المآتم أيضا كمناسبة عائلية من مظاهر التفاخر والتوسع، لولا نواهي العزابة وأوامرهم، فقد شاهدنا فيما مضى الأغنياء يقيمون العشاءات لحاضري التلاوة يمتد بعضها إلى أربعين ليلة، وبعض إلى 16 ليلة، ومعظم الناس لا يزيدون عن 8 أيام، ومنهم من يضيف يومين، لكن -بأمر من العزابة- جرى تقليصه إلى 3 أيام ولا يوجد الآن من يتجاوزها» .

4. «لاستقبال الزوار في عيد الفطر كانت تنصب في ديار الأغنياء موائد فاخرة من شتى أنواع الحلويات ومظاهر الترف، ولاستقبال الحجيج عند قدومهم تنافس كبير في الإهداء على المستوى العائلي، وما يقيمه الأقربون والأصهار من مآدب لا تخلو من مغالاة، غير أن الناس انصاعوا لما نهوا عنه -والفضل للعزابة-

فصرنا لا نُستقبل في زيارات الأعياد إلا بالتمر واللبن، ولا يقيم أحد لأبي حاجٍ مأدبة إلا إذا شاء الحاج أن يتطوع بصدقة شكراً لله» .

5. «إنّ الاحتفال بمولد النبي ﷺ -ولو أنه بدعة في الإسلام- له أهميته القيمة في تكريم الرسول، واتّخاذ فرصة للاحتفاء به، والتعرّف إلى سيرته وشمائله، وتذكير الأجيال بجهوده في أداء رسالته، لكنّها مؤخراً شوّهته بدعة مستوردة من تفجير المفرقات وما ينجم عنها من أضرار!

وكم أتمنى أن يتّخذ العزابة من الإجراءات ما يكفل القضاء على هذه الآفة اللعينة: والتي أقلّ ما يقال فيها: إنّها إسراف ما أنزل الله بها من سلطان، ومنكر يجب تغييره بأيّة وسيلة ممكنة»⁽²⁵⁾ !

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أنّ الوسيلة الرادعة للعزابة هي استعمال البراءة (التبرئة) فالذي يثبت لديهم اقترافه لمخالفة اجتماعية أو معصية شرعية بإثبات شهادة نزيهة يعلن عن البراءة منه في المحراب، فتكون مقاطعته من طرف المجتمع إلى أن يعلن توبته ويعفى عنه من طرف الهيئة.

وإذا مات قبل التوبة فإنّ غسله لا يكون على يد العزابة، وفي ذلك ما يحمله على الإسراع إلى تصحيح وضعيته وردّ اعتباره.

كما أنّ من تعرّض إلى حقّ مهضوم له الحقّ في أن يرفع شكواه إلى العزابة حينما يشرع المؤذن في إقامة الصلّاة، فيبادر بإسماع العزابة شكواه، فتتوقّف الصلّاة وتتخذ التدابير لحلّ القضية، أو ضمان بعض الحاضرين إحضار المعني، وإلاّ صلّوا فرادى! وهو أمر لا يمكن استساغته لأكثر من صلاة؟

المجلس الأعلى العزابة

مجلس عمّي سعيد

يقول الأستاذ الحاج سعيد في كتابه تاريخ مزاب: «إنّ الفترة الزمنية لإنشاء القرى الخمس الحالية على وادي مزاب لا تقلّ عن ثلاثة قرون ونصف، وليس الأمر كما يذهب إليه بعض المؤرخين أنّها أسّست في أقلّ من نصف قرن، والمنطق لا يقبل أن توجد في هذه الفترة القصيرة من الزمن، وفي هذه الرقعة الضيقة التي لا يزيد طولها عن ثمانية كيلو مترات، خمس قرى بهذه السرعة على واد واحد؛ والمنطقة -كما نعلم- صحراء قاحلة يحتاج الإنسان إلى صبر ومثابرة نادرين لتطويعها»⁽²⁶⁾.

²⁵ - الفقرات التي وضعتها في هذا الفصل بين علامة تنصيص نقلتها حرفياً من كتابي "السيرة تجسيد للسلوك المثالي" ص 99 وما بعدها، ولمن شاء المزيد أن يرجع إليه.

²⁶ - ط 2، ص 18.

وهذا ما يثبت التشكل الحضاري التدريجي لهذه القطع المتجاورات بلاد "الشبكة" كما تسمى أحيانا، علما بأن تأسيس القرارة وبريان جاء متأخرا، وبما أن لكل قرية مجلسها العزابي الخاص بها فقد أدى التوسع العمراني إلى أن يشكل تراكما للمشاكل على مستوى كل قرية، وبينها وبين عديلتها، ثم تقلص نفوذ العزابة في بعض الحالات، كل ذلك دعا إلى تشكيل مجلس أعلى يضم ممثلين لكل الحلقات القائمة في المنطقة، ويكون بمنزلة مرجعية عامة للتشاور في القضايا ذات الاهتمام المشترك، كما صار مثابة علمية ترفع إليه إشكاليات الفتوى، أو ترجيح بعض الآراء الفقهية بحيث يشكل الرأي المعتمد في المذهب، لكونه في الأصل تختار أعضاؤه من بين الرجال المتمكنين من علم الشريعة، كما أصبح بعد ذلك أشبه بمحكمة استئناف فيما شجر من خلاف على مستوى عزابة كل قرية، أو في نزاع بين بعض أفراد مجالس العشائر، بحيث يتفاقم الأمر إلى عدم الاكتفاء بما صدر من حكم محلي في قضية شائكة.

وبالرجوع إلى كثير من الوثائق التي صدرت من هذا المجلس في مختلف المشاكل -وهي مدونة في أغلبها- يدرك الباحث أهمية هذا المجلس فيما اتخذ من قرارات، يرجع إليها الفضل الكبير في تخفيف حدة النزاع، أو في حسمه في معظم الحالات.

وكم ضاع للمجتمع من طاقة لا تنكر عندما سلبت من هذا المجلس الفعالية التي كان يتمتع بها برغم بساطة الإمكانات آنذاك بالقياس لهذا العصر.

العشيرة ودورها الاجتماعي

إن نظام العشائر قديم في كل الأمم، وهو في أصله تشكل أسري يفرضه التعايش على مستوى كل قرية، وقد كان معروف منذ الجاهلية، وورد ذكره في القرآن في مناسبتين⁽²⁷⁾.

وأصل العشيرة⁽²⁸⁾ من لفظ العشرة، وذلك أن الأب إذا كان له عشرة من الأبناء ثم تناسل منهم حفدة -كما كانت أمنية عبد المطلب جد الرسول- أحس بقوة تكسبه وزنا في المجتمع، ومن مجموع العشائر أو البطون "الديار" تشكل القبيلة أو الفصيلة.

والانتماء إلى العشيرة يجعل الفرد يحس بدفء الحماية، وهنا مكن التعاطف معها والتفاني في خدمتها،

27- الأولى في سورة التوبة بمناسبة تحذير المسلمين أن يكون ولاءه للمصالح الدنيوية، بما فيها العشيرة على حساب محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: 24]، والثانية في سورة الشعراء حين أمر الرسول أن ينذر عشيرته ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 213].

28- وتسمى العاقلة أيضا لأنها تعقل الفرد من الضياع، أو لما تعقله (تربطه) من الإبل في اكتاب دية قتل الخطأ.

- والجدد في توفيرها وتوقيعها، غير أن الإسراف في ذلك يؤدي إلى عنصرية لا تقرها الأخلاق، ولا تسمح بها الديانات، فالولاء للعشيرة على حساب المبادئ مرفوض حضارياً، كما هو غير مقبول شرعياً!
- وحيثما تسود القيم الخلقية في المجتمع تكون العشيرة أداة بناء وقوة لا ينسى فضلها!
- وقد رأينا كيف وجد الشيخ أبو عبد الله ركناً شديداً حينما لجأ إلى "مغراوة" فوجد فيها خير سند لمشروعه مما هياً له فرص النجاح والاستمرار.
- ثم إن العمران حينما بدأ يتسع في منطقة ميزاب وتكاثر السكان في كل قرية من قرأه كانت لهم من تجربة توظيف العشيرة في تنظيم المجتمع ومساندة هيئة العزابة خير مثال يشخص هذه الحقيقة.
- وبتعرّفنا على المهام المنوطة بالعشيرة يمكن لنا أن نتصور الدور الذي تلعبه في المجتمع:
1. مساندة حلقة العزابة فيما تتخذ من قرارات.
 2. المساهمة في المشاريع الخيرية في البلدة.
 3. مساهمة القادرين من أبنائها في الخدمات التطوعية، وتشجيع الأكفاء منهم على الالتحاق بمنظمة "المكارييس" الحراسة.
 4. تشجيع المحسنين لبناء دار تكون مقراً لتجمعاتها ومحلاً للنفع العام.
 5. رعاية مقبرة أبنائها، ومنها تأييد أوقاف موسمية لتلك المقابر⁽²⁹⁾.
 6. إصلاح ذات البين بين أفرادها أو بين أحدهم مع فرد من عشيرة أخرى.
 7. الإشراف على ولائم الأعراس.
 8. متابعة سلوك الشباب ومساعدة الباحث منهم على عمل أو دراسة، وترشيد من ظهرت منه سفاهة، وقد تقوم برفع دعوى تحجيره من بيع الأصول من ممتلكاته حينما يستعصى تقويم سلوكه.
 9. السهر على حقوق القاصرين والأرامل والمعوقين من أبنائها.
 10. الاهتمام بضبط الأنساب، وإحصاء الفقراء وذوي الحاجات لمساعدتهم عند الاقتضاء.
 11. المساهمة في جمع الدية حينما يصدر من أحدهم قتل خطأ كما هو مقرر في الشريعة: «الدية على العاقلة».

مجلس العشيرة

ومن المعلوم أنّ هذه المهام لا يمكن أن يتولاها الأفراد من غير قيادة، لذلك تختار العشيرة ممّن تتوسّم فيه لياقة لهذا المنصب: من تضحية، وانضباط، وحنكة، وحفظ السرّ، جماعة تتولّى رئاستها ومتابعة تسيير هذه المهام، وكان في الماضي يتولّى ذلك كبار العشيرة وذوو التجربة منهم، ولا يعفى أحد منهم من مهمّته أو يتخلّى عنها إلّا لعجز أو وفاة، ثمّ أخذت بعض العشائر تفضّل أن تجري لذلك انتخابات يساهم الجميع في الترشيح، لينال مجلس القيادة فيها تزكية كلّ أفرادها، وهو تطوّر له إيجابياته وسلبياته. كما صار من مهامها مؤخرًا مساعدة السلطات في تنظيم الانتخابات المحلية والوطنية.

ويناسب على سبيل المثال أن نقدّم بعض نماذج من هذا التكافل:

1. إذا تمرّد الفرد عن المساهمة في المشاريع الخيرية العامّة يعقد له الوجهاء جلسة نصح وترشيد، وإن استعصى على النصح قاطعته فلا تحضر له وليمة ولا عزاء.

كما أنّه إذا صدر إعلان في المسجد بالبراءة من أحد أفرادها ترسل إليه من ينصحه بالمبادرة للتوبة لإعادة اعتباره في المجتمع، وإن أصرّ على ما هو عليه فإنّها تبادر بمقاطعته فلا تحضر له أيّ نشاط أو وليمة، ولا تقبل منه أيّ تطوع ممّا يشعره بوحشة الانعزال فيصحّ وضعه.

2. إذا تعرّض أحد أبنائها إلى خسارة في تجارته أو ركبته ديون فإنّها تجري تحقيقاً في قضيته، فإذا تأكّد لها أنّ ذلك لم ينشأ عن سوء تصرّف فإنّها تساعد على التخلّص من ورطته بالاتّصال بالدائنين، واتّخاذ التدابير اللازمة. وقد كان من المعمول به إلى عهد قريب أنّ العشيرة تراقب أفرادها فإذا تغيب أحدهم عن حضور الأسواق أرسلت إليه تستفسر عن السبب، فربّما كان عن خجل من ديون ركبته، أو كساد في حركته، أو مصيبة ألمّت به، فتسعى في مساعدته لتلافي الكارثة.

3. ويجب أن لا نغفل عن اللقاءات المتواصلة للجنة العشيرة حين تُنتدب لمهمّة إصلاح ذات البين، فكثيراً ما تنشأ منازعات عائلية في تقسيم الإرث، أو شقاق بين زوجين، أو مشاكسة بين شريكين، فتكون العشيرة خير ما يغني عن الترافع إلى المحاكم، فإنّها تريحهم من تحمّل تكاليف باهظة حسّاً ومعنى، وتوفّر عليهم كرامتهم، وتقيهم من إراقة ماء الوجه.

4. إن امرؤ هلك وترك أولاداً يتامى دون أن يعيّن عليهم وصياً يرعى شؤونهم، أو أرملة لم يوكل لها من يتكفّل بمصالحها من بعده، فالعشيرة ترى من واجبها أن لا تفرط فيهم وتعرضهم للضياع، فتعيّن من ذوي الخبرة منها من يرعى ويدبّر مصالحهم تحت وصاية العشيرة إلى أن يؤنس منهم رشداً بالنسبة لليتامى، وعند ذلك يدفع إليهم أموالهم تحت إشراف العشيرة التي تتصفّح الحسابات، ويوقّع من انتدب لذلك على دفتر

التصفية.

على أنّ هناك تفاوتاً في كفاءة العشائر وقدرتها على الاضطلاع بهذه المهام لدواعٍ ظرفية أو أوضاع مسبّبة، لكنّها في كلّ الحالات تبقى ركناً شديداً يأوي إليه الضعفاء، وتشجّع على أعمال البرّ، وتقلّل من استفحال الفساد.

مجلس العشائر

الضمان أو الأعيان

من مجموع العشائر تتألف القرية ، وكلّما امتد العمران واتّسعت دائرة البلدة تعقدت العلاقات الاجتماعية ، واقتضت قيادة أوسع نطاقا وأبعد أثرا ، فكان من الضروري أن يتألف مجلس من ممثلي العشائر يعرف بمجلس "الضمان" وقد برزت أهميته كتنسيقية عامّة أيام الاحتلال الفرنسي ، باعتباره يمثّل المواطنين كمجلس استشاري لدى القائد الذي توظفه السلطة آنذاك.

ويبدو من وضعيته هذه أنّ مهامه تتعلّق برعاية مصالح البلدة ، وهي أشبه بمهام المجلس البلدي. كما أنّ له دورا فاعلا في اتّخاذ المواقف ذات الطابع السياسي ، وله الفضل في اتّقاء الكثير من تعسفات السلطة المحتلة.

وقد تمّ مؤخرا إعادة هيكلته باسم مجلس "الأعيان" ، وتطعيمه بعناصر ممّا يمثّل كلّ النشاطات الفاعلة على المستوى الشعبي من هيآت عرفية منتخبة وجمعيات معتمدة.

المجلس الأعلى للأعيان

مجلس باعبد الرحمن الكرثي

بما أنّ وادي ميزاب في قراه السبع يمثّل وحدة متميّزة ذات ثقافة خاصّة ضمن فسيفساء الوطن الجزائري فقد دعت الضرورة لإنشاء هذا المجلس الأعلى الذي تمثّل العضوية فيه الانتداب من كلّ القرى لمهمّة التشاور فيما يهمّ المنطقة ، ممّا له ارتباط بالمجال السياسي والشؤون الاجتماعية : يتدارس المستجدات ، ويتّخذ مواقف ممّا يمسّ الناحية في شؤون التعليم والصحة والعمران والسياحة والتمثيل الانتخابي على الصعيد المحلي أو الوطني...الخ

خاتمة

وبعد فهذه لمحة قد تكون كافية -على إيجازها- لإعطائنا فكرة عن مسيرة هذه الأنظمة عبر العصور، وتجعلنا نتعرّف إلى ما تتحمّله من أعباء في سبيل أن تنعم الأمة بالطمأنينة وتعيش الحياة العامة في استقرار. كما نقدّر في نفس الوقت إخلاص الذين ساهموا بجهودهم المشكورة -ولا يزالون- في إنشاء هذه الهياكل أو الحفاظ عليها، رغم ما مرّت به الأمة في أزمان مختلفة من أعاصير، ولولا فضل الله تعالى ورحمته وتضحية المخلصين ونصيحة العاملين، لخسر الوطن الكثير والكثير من هذه المآثر، لا سيّما إذا أدركنا أنّ الذين ينتدبون للقيام بهذه المهام ليست لهم مطامع دنيوية ولا مساع لمكاسب مادية، إنّما يحتسبون أجرهم عند الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وفي ذلك سرّ ما تتمتع به من ثقة في النفوس ومكانة في القلوب. وقد أثبتت التجربة أنّها حافظت على أصالتها وهيبتها كلّما تجنّبت الخوض في المتاهات السياسية، على أنّنا نعلم أنّها ليست في موقف القوة على الدوام، لكنّها -كما يقال- كالسلسلة الذهبية: "ترقّ ولا تنقطع" والحقّ أنّ من عرف لها فضلها من السلطات العليا أو المسؤولين المحليين أيام الأتراك أو في عهد الاحتلال وما بعده وجدوا فيها خير مساند لتحسين الأوضاع وضبط الأمور، والذين لم يفهموا هذه الحقيقة أو لم يشاءوا أن يفهموها -وربّما حاجة في نفس يعقوب- ورّطوا أنفسهم في مشاكل بإيثارهم من لا خلاق لهم من سفهاء الأمة على حساب وجهائها، ففقدوا بذلك السياسة الرشيدة، وضلّ عنهم ما تتطلبه مناصبهم من وئام وانسجام مع جماهير الشعب.

ومن باب التواصي بالحقّ أن نستيقن أنّ من الواجب على الشعب عرفانا بالجميل أن يحافظ على الولاء لهذه المجالس العرفية، ويقدرها حقّ قدرها مادام الجميع يعلم أنّها أسّست على التقوى، وفي سبيل إعزاز الخير ونشر الفضيلة، وذلك ما يحقق فينا توصية الله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

كما أنّ من الواجب على الذين ابتلوا بهذه المسؤولية وفاء للقيم أن يكون سعيهم في سبيل الخير وإرضاء الله، وأن يعلم الجميع أنّ النصيحة المطلوبة لعامة المسلمين وخاصّتهم أن تتخذ مواقفهم فيما يفيد المصلحة العامة، فليس أضرّ على المجتمع ولا أذهب لريحه وأدعى لفشله من تصارع القيادات وتضارب التوجهات، نعم لابدّ من تداول الآراء واختلاف وجهات النظر أثناء التشاور والمداولات ثمّ يحسم الأمر لما يتعيّن أو ترجّح فيه مصلحة الأمة، وإلّا أصبحنا كمن قيل فيهم ﴿يَخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الحشر: 02]، ولاحتقنا لعنة الاعتبار من ذوي الأبصار، وعلى الله قصد السبيل.